ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

العلاقات السياسية بين الدولة الحفصية والمماليك البحرية بين القرنين (٧ – ٨هـ/ ١٣ – ١٤م)

د. عَبْدِ الرّحْمَنِ بالْأَعْرَجِ

أستاذ محاضر – قسم التاريخ
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة تلمسان – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

يتناول المقال العلاقات السياسية بين الدولتين الحفصية والمملوكية البحرية خلال الفترة الممتدة بين القرنين (٧/٨هـ – ١٣/١٤م)، لكونهما أقوى ممثلين للعالم الإسلامي في تلك الفترة، فالدولة الحفصية كانت مسيطرة على بلاد المغرب سياسيًا من خلال مبايعة بقية الدويلات المغاربية لها على اعتبار أنها الأحق بخلافة الموحدين الذين انتهى وجودهم من بلاد المغرب نهائيًا على يد بني مرين من المغرب الأقصى سنة ٦٦٨هـ أما الدولة المملوكية فكانت الحامي للجناح الشرقي للعالم الإسلامي بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد، وكانت تسيطر على مصر والشام والحجاز، ووصل نفوذها أحيانًا إلى بلاد المغرب، وكانت الدولتان متجاورتان في الحدود الجغرافية ما دفعهما للبحث عن سبل التقارب السياسي. ويركز على التواصل الدبلوماسي بين البلدين في ظل الجو الدولي المتوتر والذي كان يشهد تجدد الحملات الصليبية الأوربية على بلدان المشرق والمغرب الإسلاميين، كما يركز على مشكلة الخلافة الإسلامية التي برزت إلى الوجود عقب سقوط بغداد بيد المغول، وتنازع الحفصيين والمماليك على لقبها من أجل نيل الشرعية السياسية في العالم الإسلامي، ومحاولة الظاهر بيبرس والمستنصر الحفصي إثبات الأحقية في تولي هذا المنصب، وإذا كان الحفصيون من سلالة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ويحق لهم التسمية بلقب الخليفة خاصةً بعد مبايعة أمير مكة لهم، فإن المماليك قد اضطروا أن يجلبوا أحد أفراد البيت العباسي بعد سقوط بغداد وإثبات نسبه وتعيينه خليفة في بغداد. وموقف المماليك من الحملة الصليبية الأوروبية بقيادة لويس التاسع الفرنسي على تونس، وكذا تدخلهم في الشأن الداخلي الحفصي من خلال مساندة بعض الحركات السياسية المعارضة كحركة أب زكرياء اللحياني.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث: ٢٥ أكتوبر ٢٠١٤

تاريخ قبول النشر: 10 يناير ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

التاريخ السياسي، خلافة المستنصر، الظاهر بيبرس، الصليبية الثامنة، زكرياء اللحياني

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الرحمن بالأعرج. "العلاقات السياسية بين الدولة الحفصية والمماليك البحرية: بين القرنين (٧ – ٨هـ/ ١٣ – ١٤م)".- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٥. ص ٦١ – ٦٧.

مُقَدِّمَةْ

يُعَدّ البحث في تاريخ العلاقات السياسية والدبلوماسية إبان العصر الوسيط من المواضيع التي صارت تهم الساحة الأكاديمية، خاصةً فيما يتعلق بالعلاقات بين دول المغرب الإسلامي والدول المجاورة له، ولما كانت الحدود الشرقية لهذا الفضاء الجغرافي متلاصقة مع دولة المماليك، جاء التفكير في البحث حول طبيعة العلاقات التي ربطت الدولة الحفصية بالدولة المملوكية الأولى أو البحرية في اصطلاحات المؤرخين. إن الهدف من هذا الموضوع هو إبراز مدى أهمية التواصل الدبلوماسي بين أقطار العالم الإسلامي في إرساء معالم الوحدة بين دوله في العصر الوسيط.

وقد تناول هذا الموضوع بالدراسة جملة من الباحثين عبر كتابات متفرقة في المصادر والمراجع، ولعل عبد الرحمن بن خلدون قد أدلى بدلوه في هذا السياق، وكذلك القلقشندي الذي يزخر كتابه "صبح الأعشى" بالكثير من المراسلات الدبلوماسية، فضلاً عن بعض الباحثين المعاصرين أمثال عابد يوسف من جامعة قسنطينة

- الجمهورية الجزائرية، والدكتور أحمد عزاوي من المملكة المغربية والذي أفاض في الحديث عن هذه العلاقات في مؤلفاته. يطرح المقال مجموعة من التساؤلات نحاول الإجابة عنها في طياته، أهمها: ما هي طبيعة العلاقات التي ربطت بين الدولتين الحفصية والمملوكية؟ ما هو موقف الحفصيين من قيام الدولة المملوكية؟ وما هو موقف المماليك من الخلافة الحفصية؟

وتعتبر الدولة الحفصية[١] من الدول ذات الحضور القوي في المغرب الإسلامي عقب ضعف وسقوط دولة الموحدين، وشكلت بحدودها التي امتدت من بجاية غربًا إلى إقليم طرابلس الغرب وحدود برقة شرقًا، الدولة الأولى من دول المغرب التي تعاملت مع المماليك البحرية على الصعيد السياسي بحكم الجوار وبحكم كونها كانت المرشحة لخلافة دولة الموحدين، وقد كانت على مقربة من الوقائع التي أدت إلى سقوط الدولة الأيوبية وقيام الدولة المملوكية، ومما أتيح لنا من المصادر أمكن رسم معالم العلاقات التي ربطت بين الحفصيين والمماليك البحرية.

(١) بداية العلاقات الحفصية المملوكية

يمكن إرجاع بداية العلاقات بين دولة الحفصيين والمماليك إلى أواخر عهد الدولة الأيوبية والأشهر الأولى لميلاد دولة المماليك البحرية، وفي هذا السياق يذكر ابن قنفذ القسنطيني في كتابه "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية"،[٢] وابن الشماع في "كتابه الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية"[٣] أن علاقة مودة وصداقة كانت تجمع بين السلطان الحفصي أبي زكرياء صاحب تونس، والملك الصالح أيوب، ويمكن إجمال مظاهر هذه العلاقات في تبادل المعلومات حول التحركات الصليبية التي كانت تهدد السواحل المغربية والمشرقية على حد السواء.

وفي هذا الصدد أوفد السلطان الحفصي سفارة إلى الملك الصالح أيوب في القاهرة، يعلمه بتخطيط وعزم الملك الفرنسي لويس التاسع على غزو مصر فيما عرف بالحملة الصليبية السابعة، وتضمن كتاب الرسول اعتذار أبي زكرياء عن عدم تمكنه من صد الهجوم الصليبي بنفسه نظرًا للأخطار التي كانت تهدد دولته من جانب صاحب صقلية، وكذلك خطر الأعراب الذين كانوا دائمي الثورة والانتقاض بإفريقية.[٤]

وقد ذكرت المصادر الأخرى المعاصرة أن المعلومات التي وردت الملك الصالح أيوب كانت من طرف ملك الإمبراطورية الرومانية المقدسة فريديريك الثاني الذي كان قد نشأ في صقلية في كنف المسلمين والحضارة الإسلامية،[٥] لكن الظاهر أن الخطر المشترك الذي كان يهدد العالم الإسلامي من جهة الحوض الغربي للمتوسط قد ساهم في إرساء قواعد اتصالات دبلوماسية وتبادل للمعلومات التي تخص الجانبين الحفصي والأيوبي ثم المملوكي، خاصةً وأن الحملات الصليبية التي كانت تقصد المشرق غالبا ما كانت تمر بالسواحل التونسية.

وكان بنو حفص على علم بالأحداث السياسية التي أدت إلى سقوط حكم البيت الأيوبي وانتقال الحكم إلى طائفة المماليك البحرية، وكان لزامًا عليهم التعامل مع نظام الحكم الجديد الذي طرأ في القاهرة، لكن مع اشتداد الخطر المغولي على بغداد وسقوط الخلافة العباسية بها تعكر جو العلاقة التي صارت تنافسية حول منصب الخليفة أكثر منها تعاونًا ضد الأخطار الأجنبية الصليبية من الغرب والمغولية من الشرق.

(٢) مسألة الخلافة الإسلامية بين الحفصيين والمماليك البحرية

شكلت مسألة الخلافة الإسلامية الميزة التي صبغت العلاقات الحفصية المملوكية في بدايتها، وقد تسامع عامة المسلمين خبر سقوط بغداد على يد المغول سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله[٦]، وأمسى المسلمون في العالم في موقف لم يعتادوه منذ عهد الرّسول (ﷺ)، فالتفتت الأنظار للبحث عمن يمكن أن يلقب بالخليفة ويجدد رسوم الخلافة، فبادر أهل الحجاز لتعيين الخليفة، وتوجهت أنظارهم إلى الدولة الأيوبية التي كانت في فترة السقوط وانتقال السلطة إلى المماليك البحرية وحال ذلك دون التمكن من عرض الفكرة على السلاطين الجدد لعدم توفر شروط الخلافة في أي منهم، حيث كان المماليك عبارة عن رقيق، فضلا عن أن الخلافة لا ينبغي أن تخرج من قريش، ولم يبقى أمام شريف مكة سوى سلطان الدولة الحفصية بتونس.[٧]

وقد اجتمعت الكثير من العوامل دفعت المسلمين في المشرق والمغرب إلى الاتجاه صوب الحفصيين لتولي منصب الخلافة الإسلامية، حيث أن نسبهم يرتفع إلى الخليفة الثاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقرر أمير مكة إرسال البيعة لهم، هذا ما جعل السلطان محمد بن أبي زكرياء الملقب بالمستنصر الحفصي يكتسب شهرة عمت العالم الإسلامي في المغرب والمشرق.[٨]

وكان أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن سبعين المرسي (ت ٦٦٩هـ/١٢٦٩م) من الأعلام الزهاد المتصوفة المغاربة الذين استقروا بمكة، وكان على علاقة طيبة مع شريف مكة بن أبي نمي، وهو الذي تولى إنشاء كتاب البيعة.[٩] وكان ابن سبعين قد هاجر من بلاده مرسية بالأندلس قاصدًا تونس في إطار الهجرة الأندلسية فرارًا من حروب الاسترداد النصرانية، ثم توجه إلى الحجاز وأقام مجاورًا في مكة المكرمة، وكان من المحرضين لأبي نمي على التبعية للمستنصر الحفصي الذي قام بدور كبير في إنقاذ المهاجرين الأندلسيين من المذابح الصليبية وإيوائهم في تونس فضلاً عن نفوذه ببلاد المغرب الإسلامي.[١٠]

وتم إرسال نص البيعة[١١] سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٩م) بعد إلغاء مراسيم الخلافة العباسية في بغداد. أما حامل الرسالة من مكة إلى تونس فكان أبا محمد بن برطلة الاشبيلي[١٢]، وعقد لها مجمع حافل وقرئت على الناس وكان ذلك اليوم من الأيام المشهودة في

الدولة الحفصية[١٣]، وكان الحادث محققًا لرغبة كامنة في نفوس بني أبي حفص فاعتبروا أنفسهم أجدر بالخلافة ولقب الخليفة وأمير المؤمنين، ومما قاله أحد الشعراء مهنئا المستنصر:

أُهَنِّئُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
بِدَعْوَةٍ وَافْتَكَّ بِالإِقْبَالِ وَالإِسْعَادِ
فَلَقَدْ حَبَاكَ بِمُلْكِهِ رَبُّ الوَرَى
فَأَتَى يُبَشِّرُ بِافْتِتَاحِ بِلاَدِ
وَإِذَا أَتَتْكَ أُمُّ القُرَى مُنْقَادَةً
فَمِنَ الْمَبَرَّةِ طَاعَةُ الأَوْلاَدِ[١٤]

وأصبح السلطان الحفصي يلقب بأمير المؤمنين بعد أن كان ينادى بالأمير فقط.[١٥] وافتتح نص البيعة بالبسملة وبالآيات الأولى من سورة الفتح، ثم جاء فيها: "... فمَنْ فتح عليه بفتح مكة تمت له النعمة، ورفعت له الدرجة، وضفت عليه الرحمة، ومَنْ وصل سلطانه إليها فقد هدي الرشد وسار على صراطه، ورجح ميزان ترجيحه على أقرانه وأرهاطه، ومَنْ حرم من هذا فقد حرم من ذلك، والأمر هكذا وسنة الله كذلك."[١٦] وهي إشارة إلى أن مَنْ بايعه أمير مكة فهو الأحق بالبيعة من بين كل السلاطين المسلمين في المشرق والمغرب، وأن هذه البيعة هي فتح عظيم على الحفصيين، حيث أنهم سيصبحون الخادمين للحرمين الشريفين الذين سيصبحان تحت سلطتهما الدينية.

وورد في نص البيعة التصريح والاعتراف بأن بني أبي حفص أحق بالخلافة حيث جاء: "وقد قيل إن الملة الحنفية المضرية تنصرها السيرة العمرية المحمدية المستنصرية. ولعل الذي أقام الدين وأطلعه من المشرق وأتلفه منه، يجيره من المغرب ولا ينقله عنه..."،[١٧] وكذلك: "سنته محمدية، وسيرته بكرية، وسريرته علوية، وسلالته عمرية. فهذه ذرية وأنواع مجد بعضها من بعض، عرف بالرياسة العالية..."[١٨] وقد استدل في هذه البيعة على أن الخلافة بعدما يتم إسقاطها في بغداد تنتقل إلى بلاد المغرب بما ورد في الآثار: "إذا خرجت نار الحجاز يقتل خليفة بغداد ويستقيم ملك المغرب، وتبسط كلمته في الأقطار، ويخطب له على منابر خلفاء بني العباس، ويكثر الدر بالمعبر من بلاد الهند."[١٩] وقد ذكر بعض المؤرخين خروج نار الحجاز المذكورة في سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م).[٢٠]

هذا وجاء في بقية نص البيعة كل الدلائل التي تفيد بأن السلطان الحفصي هو الخليفة المقصود، كما جاءت بإشارات إلى أن أمير مكة كان يعتزم التخلي عن الدعوة للعباسيين في بغداد، ربما لأن وزير الخليفة آنذاك كان من الروافض،[٢١] وجاء فيها: "... فلما وصل العلم بانتقال بيت الملك والسلطان من بغداد في شهر رمضان، أظهر الخفي المكنون، فكان ذلك مع التسبيح والقرآن، وكان الخادم في الزمان الأول وفي الذاهب ينتظر الخطة نحو عراق المغرب، والآن وجد نفسها من نحو اليمن إقليم الأعراب والعرب..."."[٢٢]

وختمت الرسالة بعبارات الوقار للخليفة الذي تمت له البيعة، وذكر مكان كتابتها دون التاريخ: "ومعاد التحية على المقام الأرفع، والمقر الأنفع، وعلى خدام حضرته العلية، وأرباب دعوته الجلية، وأنواع رحمته تعالى وبركاته، والحمد لله كما يجب، وصلى الله على نبيه محمد وعلى آله وسلم. كتب تجاه الكعبة المعظمة في الجانب الغربي من الحرم الشريف، والحمد لله رب العالمين."[٢٣]

وقد انتشر خبر هذه البيعة في كل أقطار العالم الإسلامي وتباينت ردود الأفعال من ذلك، حيث أن اتخاذ لقب خليفة المسلمين من طرف السلطان الحفصي يمكن النظر إليه من زاويتين، فإما أنه كان محققًا لأهداف إيجابية أو أنه لم يتجاوز التشريف، لأن منصب خلافة المسلمين وإمارة المؤمنين يقتضي القيام على مسؤوليات تشمل العالم الإسلامي في المشرق والمغرب. وقد توالت البيعات على الخليفة الجديد من أقطار المغرب الإسلامي، حيث وصلت بيعة أهل الأندلس خاصة من النصريين في غرناطة، وكذلك من بني عبد الواد في تلمسان، والمرينيين في فاس.[٢٤]

لكن بالمقابل فإن هذه البيعة لم تلق التجاوب اللازم لها في بلاد المشرق نظرًا للظروف السياسية الصعبة التي عاشتها المنطقة خاصةً زحف المغول والتتار على العالم الإسلامي وتخريب حواضره، كما أنها عدت مبادرة فردية من ابن سبعين وشريف مكة، واعتبر المؤرخون المشارقة أن الخلافة قد انقطع رسمها لمدة ثلاث سنوات منذ سقوط بغداد حتى تم إحياؤها في القاهرة على يد الملك الظاهر بيبرس المملوكي.[٢٥]

(٣) موقف المماليك من خلافة المستنصر

يفهم من بعض المصادر التي تناولت مسألة الخلافة الحفصية بأن الملك الظاهر بيبرس قد اعترف بالمستنصر الحفصي كأمير للمؤمنين، وذلك في ظل افتقار دولة المماليك البحرية الناشئة لسند شرعي، ويذكر ابن قنفذ القسنطيني في كتابه الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ما يلي: "وفي سنة تسع وخمسين وستمائة المذكورة قرئ كتاب هزيمة التتار على المستنصر وخططه أهل الديار المصرية في الكتاب المذكور بأمير المؤمنين، وكان هذا أكبر آمال المستنصر وأحبها إليه."[٢٦] لكن يبدو أن اعتراف المماليك بخلافة المستنصر لم يدم طويلاً،[٢٧] إذ سعى الظاهر بيبرس البندقداري لتجديد معالم الخلافة العباسية بالقاهرة، وذلك خير دليل على أن ذلك الاعتراف ما كان إلا سياسة مرحلية إلى حين توطيد الحكم المملوكي.

وتذكر المصادر أنه في مطلع شهر رجب سنة (٦٥٩هـ/١٢٦١م) حضر إلى القاهرة أحد أبناء البيت العباسي الناجين من الزحف المغولي، وهو الأمير أحمد بن محمد بن أحمد بن الحسن أبو القاسم بن الخليفة الظاهر العباسي، فاستقبله الظاهر بيبرس وبالغ في إكرامه وأنزله بالقلعة، وأحضر أعيان الدولة والعلماء، وأمر بإحضار العربان الذين قدموا مع الخليفة من العراق للشهادة بصحة انتساب الأمير أحمد للبيت العباسي، وشهد بذلك عند قاضي

القضاة تاج الدين بن بنت الأعز، وعقب ذلك تم عقد البيعة له ولقب بالمستنصر، وأول من بايعه كان قاضي القضاة تاج الدين، ثم السلطان، ثم الشيخ عز الدين بن عبد السلام، واحتفلت القاهرة بهذه المناسبة، وهو الخليفة الثامن والثلاثون من خلفاء بني العباس.[٢٨]

إن تلقب الخليفة العباسي الجديد بلقب المستنصر يرجع في نظر بعض الدارسين[٢٩] إلى اتخاذ السلطان الحفصي لهذا اللقب، ويقول المقريزي في هذا الصدد متحدثًا عن الخليفة العباسي: "... واتفق له ما لم يتفق لغيره، وهو أنه لقب بالمستنصر لقب أخيه باني المدرسة المستنصرية ببغداد، ولم يقع لغيره أن خليفة لقب بلقب أخيه سواه...."[٣٠] هذا في ظل ما كان موجودًا من بقايا مراسيم الخلافة الموحدية في مراكش والتي لم تدم طويلاً حتى قضى عليها بنو مرين سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٩م).

هذا وذكر القلقشندي في كتابه صبح الأعشى في حديثه عن الحفصيين قوله: "وهم يدعون النسب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيقولون: أبو حفص عمر بن يحيى بن محمد بن وانود بن علي بن أحمد بن والال بن إدريس بن خالد بن اليسع بن إلياس بن عمر بن وافتن بن محمد بن نجية بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب. وباعتبار ذلك القائمون بها من بني أبي حفص يدعون الخلافة، ويدعى القائمون منهم في بلاده بأمير المؤمنين، وربما كاتبه بها بعض ملوك المغرب... ومن أهل النسب من ينكر ذلك، ويجعلهم تارة ينسب إلى عدي بن كعب: رهط عمر بن الخطاب دون عمر، ومنهم من ينسبهم إلى هنتاتة من قبائل البربر بالمغرب، وهي قبيلة عظيمة مشهورة".[٣١] وهذا التعبير من طرف أحد كبار كتاب الإنشاء والمؤرخين في عصر المماليك يبين لنا الطابع العام لموقف الدولة المملوكية وكبار رجال العلم فيها من الخلافة الحفصية وأنها لم تلق التجاوب اللازم في المشرق.

غير أن المكاتبات التي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء المملوكي والموجهة للحفصيين كانت تحمل عبارات تدل على غير ذلك، حيث كانت الرسائل تفتتح كالتالي: "..إلى الحضرة الشريفة العلية السنية السرية العالمية العادلية الكاملية الأوحدية حضرة الإمارة العدوية، ومكان الإمامة القرشية، وبقية السلالة الطاهرة الزكية، حضرة أمير المسلمين، وزعيم الموحدين، والقائم في مصالح الدنيا والدين، السلطان السيد الكبير المجاهد المؤيد المرابط المثاغر المظفر المنصور المتوكل على ربه...."[٣٢]، فلفظ "ومكان الإمامة القرشية" يدل على الاعتراف الضمني بأن تونس مقر الخلافة وأن الحفصيين فعلاً كانوا من ذرية عمر بن الخطاب.

(٤) موقف المماليك من الحملة الصليبية الثامنة على تونس

تُعَدّ الحملة الصليبية الثامنة التي قادها الملك الفرنسي لويس التاسع على الأراضي الإسلامية في تونس بمباركة من البابا، حلقة من حلقات الصراع الديني بين الشرق والغرب، وبعد فشل الحملة الصليبية السابعة على مصر بقيادة الملك نفسه، فكر الصليبيون في حملة أخرى على الديار الإسلامية، وكانت الأسباب المباشرة لهذه الحملة هي الاستيلاء على كنوز بلاد المغرب لتحضير حملات أخرى على الأراضي المقدسة في المشرق، ورغبة لويس التاسع في الانتقام من المسلمين الذين هزموه وأذلوه في وأسروه في مصر قبل ذلك سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م).[٣٣]

ورغم تكتم الصليبيين على الحملة وتحضيراتها فقد تسامع خبرها كل العالم الإسلامي خاصةً على المستوى الرسمي، إذ أن المماليك وخاصةً في عهد السلطان الظاهر بيبرس لم تكن لتخفى عليهم تحركات الصليبيين، إذ كان من أولويات المماليك إنهاء الوجود الصليبي بالمشرق، ووقعت حالة من الاستنفار في كل من مصر وتونس، خاصةً وأن كلا البلدين كان يعتقد بأنه المستهدف من الحملة.[٣٤]

وقام كل من السلطان الحفصي والسلطان الظاهر بيبرس المملوكي باتخاذ التدابير اللازمة لرد الخطر الصليبي المحتمل على البلاد الإسلامية، فقام الظاهر بيبرس بتحصين الموانئ المصرية المطلة على البحر المتوسط، وزودها بالجند والسلاح لمنع أي إنزال محتمل للصليبيين على أرض مصر، وذكر عبد الرحمن ابن خلدون هذه الاستعدادات قائلاً: "فاهتم الظاهر بحفظ الثغور واستكثر من الشواني والمراكب"[٣٥]، أي أنه قام بتدعيم الأسطول البحري المملوكي. كما اتصل بالبنادقة ووعدهم بمنحهم عدة امتيازات تجارية في السواحل المصرية والشامية، مقابل امتناعهم عن تقديم يد المساعدة البحرية للملك لويس التاسع الفرنسي، وأشار عليهم بأن يغالوا في شروطهم إذا أراد التفاوض معهم، وهو ما حدث بالفعل، فلجأ لويس التاسع إلى استأجار أسطول جنوه.[٣٦]

أما المستنصر الحفصي، فقد أصدر الأوامر إلى كل العمال في أنحاء السلطنة من أجل الاستكثار من العدة، وإصلاح الأسوار وتخزين المواد الغذائية كالحبوب[٣٧]، كما أرسل وفدًا إلى الملك لويس التاسع لاختبار موقفه ومحاولة كفه عن مشروعه، مقابل ثمانين ألفًا من الذهب، لكن الملك الفرنجي كان مماطلاً في موقفه، حيث كان في نيته غدر المسلمين ونكث العهود التي قطعها لهم عقب إطلاق سراحه من مصر بأن لا يطأ أرض المسلمين ثانية بموجب المعاهدة التي أبرمها مع المماليك.[٣٨] وقام الملك الظاهر بيبرس من جانبه بإرسال وفد إلى الملك لويس التاسع بهدف تحذيره من القيام بأي عمل ضد بلاد المشرق، وقد صيغ هذا التحذير في شكل قصيدة شعرية من نظم الشاعر جمال الدين بن مطروح[٣٩]، ألقاها السفير المملوكي على ملك الفرنجة وهو واقف، وأهم ما جاء فيها تذكير لويس التاسع بما جرى له في وقعة المنصورة في مصر وأنه لو عاد فسيلقى المصير نفسه.[٤٠]

وصادف وجود الوفد المصري في البلاط الفرنجي وجود الوفد الحفصي، لكن المصادر لا تفيدنا إن كان قد تم بينهما لقاءات أم لا،

لكن الراجح حسب الظروف الإقليمية وفي ظل الخطر المشترك أن الوفدان قد تقابلا وتحادثا في هذه المسألة التي تهم العالم الإسلامي برمته، وإن كانت مشكلة الخلافة التي أعلنها المستنصر الحفصي لا تزال تخيم على جو العلاقات المملوكية الحفصية، ومن المحتمل أن الوفد الحفصي قد طلب يد المساعدة من المماليك لما علم بأن الحملة ستتوجه إلى تونس وليس إلى مصر، حيث ما إن عاد الوفد المملوكي إلى مصر وأطلع الملك الظاهر بيبرس على اتجاه الحملة حتى قرر الوقوف إلى جانب الحفصيين ومساعدتهم لرد العدوان الصليبي، إذ كان المماليك رواد تحرير الأراضي المقدسة من بقايا الصليبيين وكان لهم خبرة في قتالهم وهزيمتهم.

ووعد الظاهر بيبرس بإرسال النجدات إلى الحفصيين، وأمر عرب برقة بالمسير إلى تونس وأن يحفروا الآبار على طول الطريق المؤدية إليها حتى تستفيد منها الجيوش المقاتلة ومن أراد التطوع لقتال الصليبيين في تونس.[٤١] وقد شرع فعلا في تجهيز الحملة المصرية لولا ورود الأخبار بانسحاب الصليبيين من تونس بسبب وباء الطاعون الذي قضى على الكثير من الجيش الصليبي، وعلى الملك الفرنسي لويس التاسع نفسه في شهر المحرم ٦٦٩هـ/ ٢٥ أوت ١٢٧٠م، وقد استقبلت هذه الأنباء بالارتياح الكبير في المشرق.[٤٢]

وذكر المقريزي في كتابه السلوك بأن المستنصر الحفصي بعث سنة (٦٧٠هـ/ ١٢٧١م) بهدية إلى الملك الظاهر بيبرس البندقداري الذي قام بتوزيعها على الأمراء والقادة والجند، ورد عليه برسالة أخرى يستنكر فيها عليه موقفه الانهزامي أمام الفرنج، وأنه لا يصلح لإمرة المسلمين لعدم تمكنه من مجابهة العدو في سواحل مدينة تونس[٤٣]، ولجوئه إلى عقد الصلح مع الفرنج والتزامه بأن يدفع لهم مقدارًا من المال تعويضًا عن الخسائر التي تكبدها الصليبيون، إضافة إلى ضريبة سنوية، وضمانه لحرية التجارة الأوربية بالسواحل الحفصية، وتبادل الأسرى.[٤٤]

(٥) دور المماليك في دعم حركة أبي يحيى زكرياء اللحياني

يُعَدّ أبو يحيى زكرياء بن أحمد بن محمد الزاهد بن عبد الواحد بن أبي حفص (٦٥١هـ-٧٢٨هـ/١٢٥٣-١٣٢٨م)[٤٥] من الشخصيات الحفصية التي استعانت بالمماليك للوصول إلى الحكم بتونس. وكان اللحياني قد سافر إلى مصر سنة (٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، ولما بلغته مجريات الأحداث في تونس والفوضى السياسية الكبيرة التي كانت تعيشها المملكة الحفصية[٤٦]، قرر العودة وجهزه السلطان الناصر بجيش من المماليك إلى غاية طرابلس الغرب، وهناك اجتمعت حوله القبائل العربية وبايعته وانضموا إلى جيشه، ثم سار إلى تونس واستولى على الحكم.[٤٧]

وواجه اللحياني معارضة شديدة من طرف أبي بكر بن يحيى المنتخب أخ أبي البقاء خالد المخلوع، الذي تمكن من دخول تونس والإطاحة بحكم اللحياني الذي استقر في طرابلس الغرب، وكان ذلك سنة (٧١٨هـ/١٣١٨م)، وقام أبنه محمد بالاحتفاظ بمدينة المهدية وكان أبوه بطرابلس الغرب، ولما بلغته هذه الأخبار اضطرب جيشه وقام بالاستنجاد بالنصارى لكي يرسلوا إليه أسطولا يحمله إلى المشرق، فبعثوا له ستة مراكب حملته وأهله وأولاده وماله وحاجبه أبي زكرياء بن يعقوب إلى الإسكندرية، واستخلف على طرابلس أبا عبد الله بن عمران من أصهاره، وقام بجمع العرب حوله وشن عدة حملات على تونس وذلك سنة (٧٢٠هـ/١٣٢٠م).[٤٨]

وقام السلطان الملك الناصر المملوكي باستقدام اللحياني إلى القاهرة وأعلى من شأنه وقربه إليه.[٤٩] وفي سنة (٧٢١هـ/١٣٢١م) وردت مكاتبات من تونس على اللحياني، جاء فيها بأن الحكم شاغر في تونس، وأن الناس قد اجتمعوا على الطاعة له، وقاموا بمبايعة نائبه محمد بن أبي بكر وأنهم في انتظار وصوله إليهم وعودته إلى الحكم.[٥٠] لكن اللحياني بقي في مصر، ولم يتسنى له العودة إلى الحكم إلى غاية وفاته سنة (٧٢٨هـ/١٣٢٨م).[٥١]

ومن خلال هذه العلاقة بين السطان الناصر المملوكي وأبي يحيى زكرياء اللحياني الحفصي، تتبادر إلى الذهن مجموعة من الفرضيات حول الأهداف التي كان يسعى المماليك إلى تحقيقها من تدخلهم العسكري في تونس، وذلك من خلال تجهيز اللحياني بجيش من المماليك، وجعل أرض مصر منطقة تراجع والتجاء في له حالة انهزامه. ويمكن القول؛ أن السلطان الناصر كان يبتغي مد حكمه إلى المغرب الأدنى من خلال اللحياني وبالتالي تقويض أركان الخلافة الحفصية الناشئة. لكن تبقى هذه الطروحات في حاجة إلى الوثائق المثبتة لها.

خاتمة

من خلال العرض السابق يمكن القول؛ بأن الكثير من العوامل تدخلت في رسم معالم وطبيعة العلاقات بين الدولتين الحفصية والمملوكية خلال القرنين السابع والثامن الهجريين (١٣-١٤م)، حيث كانت دولة الحفصيين في إفريقية مجاورة لحدود دولة المماليك البحرية من ناحية الشرق، وكانت السبل والمسالك مفتوحة بين البلدين، ما ساعد على عملية التواصل المستمر عن طريق البر، أما من جهة البحر فكانت السفن دائمة الإبحار بين موانئ تونس وطرابلس الغرب وميناء الإسكندرية المصري. ولا شك بأن النظامين الحفصي والمملوكي كان لهما وجهات نظر متقاربة حول القضايا المصيرية المشتركة والتي تهم العالم الإسلامي مثل الخطر المشترك والمتمثل في العدو الصليبي، كما كان هناك بعض أوجه التنافر الدبلوماسي خاصةً في مرحلة انتقال الخلافة من بغداد إلى القاهرة وتونس، ما تسبب في بعض التنافر السياسي الذي سرعان ما زال لاحقًا.

الهَوامِشُ:

(١) تأسست الدولة الحفصية سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م على يد أبي زكرياء الحفصي بالمغرب الأدنى (إفريقية). وينتسب الحفصيون إلى أبي حفص عمر بن يحي بن عمر الهنتاتي، وهناك من يرفع نسبهم إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهم من قبيلة هنتاتة البربرية أكبر قبائل المصامدة بالمغرب الأقصى، والتي كانت السباقة إلى نصرة دعوة محمد بن تومرت، هذا الأخير الذي كنى جدهم عمر زعيم هنتاتة بأبي حفص وضمه إلى جماعة العشرة المقربين منه، وأصبح في عهد عبد المؤمن بن علي من كبار رجال الدولة. عبد الرحمن ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج٦، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١، ص٥٧٧ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الشماع، **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق: الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٤، ص٤٨ محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني ابن أبي دينار، **المؤنس في أخبار إفريقية و تونس**، ط ٣، دار المسيرة، بيروت، ١٩٩٣، ص١٥٣ – ٢٠٠ روبار برنشفيك، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥م**، ج١، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨، ص ٤٢.

(٢) أبو العباس أحمد بن قنفذ القسنطيني، **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، ص ١١٢.

(٣) ابن الشماع، المصدر السابق، ص٥٣.

(٤) ابن قنفذ، المصدر السابق، ص١١٢.

(٥) تقي الدين المقريزي، **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية**، ط٢، ج١، ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧، ج١، ص٣٨٥.

(٦) أبو المحاسن بن تغري بردي الأتابكي، **المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي**، ج٧، تح: محمد أمين، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٩٠، ص ١٢٦١٢٩ – أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، **البداية والنهاية**، ط ٦، ج ١٣، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٨٥، ، ص ١٦٠ – جلال الدين السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، تح: أحمد إبراهيم زهوة، سعيد بن أحمد العيدروسي، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٥، ص ٣٥٥.

(٧) المطوي، المرجع السابق، ص١٨٩.

(٨) برنشفك، المرجع السابق، ص٧٠٧١.

(٩) أبو العبّاس أحمد بن أحمد الغبريني ، **عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١، ص ٢٠٩ أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ج٧، تح: إبراهيم علي طرخان، المؤسّسة المصرية العامة، القاهرة (د.ت)، ص٢٣٢ – ابن تغري بردي، **المنهل الصافي**، ج٧، ص ١٤٤

(١٠) محمد العروسي المطوي، **السلطنة الحفصية**، ص ١٩٠.

(١١) نص الرسالة من كتاب: عبد الرحمن بن خلدون، **العبر**، ج٦، ص ٤٠٧ ٤١٦.

(١٢) هو أبو محمد عبد الحق بن برطلة الأزدي المرسي، عالم محدث، درس بالأندلس ثم هاجر إلى المشرق، واستقر في تونس عقب عودته من الحج وتوفي سنة (٦٦١هـ/١٢٦١م). محمد بن محمد مخلوف، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، ج١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٤٩هـ، ص ١٩٦ ابن قنفذ، الفارسية، ص١٢٠ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الزركشي، **تاريخ الدّولتين الموحديّة والحفصيّة**، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٦، ص٣٧.

(١٣) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر**، ج٦، ٤١٦.

(١٤) الزركشي، **الدولتين**، ص ٣٧ – مخلوف، المصدر السابق، ص ١٩٦.

(١٥) ابن الشماع، المصدر السابق، ص٦٩.

(١٦) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر**، ج٦، ص٤٠٧.

(١٧) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر**، ج٦، ص ٤٠٩.

(١٨) المصدر نفسه، ج٦، ص٤١١.

(١٩) أحمد عزاوي، **العلاقات بين العالمين الإسلامي والمسيحي في العصر الوسيط**، ج٢، مطبعة ربا نت، الرباط، ٢٠١١، ص ٩٢.

(٢٠) ابن قنفذ، المصدر السابق، ص ١١٩.

(٢١) الزركشي، المصدر السابق، ص٣٤ – عزاوي، المرجع السابق، ج٢، ص٩٩.

(٢٢) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر**، ج٦، ص ٤١٦.

(٢٣) عبد الرحمن بن خلدون، المصدر نفسه، ج٦، ص ٤١٦٤١٧.

(٢٤) انظر ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٤١٧، وقد أعلن بنو مرين مبايعتهم للمستنصر وتشبثوا بها لمدة طويلة نتيجة مواجهتهم للموحدين حيث طلبوا من الحفصيين المعونة والمساعدة ضد خصومهم. انظر: أبو العباس أحمد السلاوي الناصري، **الاستقصاء لأخبار دوّل المغرب الأقصى**، ج٣، تحقيق: محمد و جعفر الناصري، دار الكتب، الدّار البيضاء، ١٩٥٤، ص ٢٨ حيث يقول بأنه: "لما لم يكن لبني مرين أن يدعوا إلى بني عبد المؤمن لأنهم أقتالهم وإياهم يتنازعون... دعوا إلى طاعة الحفصيين الذين هم فرع منهم، والدعوة إلى فرع كالدعوة إلى أصله، فلم تنفر نفوس أهل المغرب عنها".

(٢٥)**عقد الجمان في تاريخ أهل الزّمان**، ج١، تحقيق: محمد محمد أمين، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٨٧، ص٢٩٣.

(٢٦) ابن قنفذ، المصدر السابق، ص١٢٥.

(٢٧) المطوي، الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص٢٥٦.

(٢٨) ابن تغري بردي، **المنهل الصافي**، ج، ص ٧٢ **النجوم الزاهرة**، ج٧، ص٢٠٦ العيني، المصدر السابق، ج١، ص٢٩٣ ابن كثير، المصدر السابق، ج١٣، ص٢٣١٢٣٢.

(٢٩) المطوي، المرجع السابق، ص١٩٤.

(٣٠) تقي الدين المقريزي، **كتاب السلوك لمعرفة دوّل الملوك**، ج١، تحقيق: مصطفى زيادة، لجنة التأليف والتّرجمة و النّشر، القاهرة، ١٩٧٢، ص٤٥١.

(٣١) أبو العباس أحمد القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، ج٧، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنّشر، القاهرة، ١٩٨٥، ص٣٧٧.

(٣٢) القلقشندي، المصدر نفسه، ج٧، ص ٣٧٨.

(٣٣) العيني، المصدر السابق، ج١، ص ١٧ ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص١٣٦.

(٣٤) ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص١٣٧.

(٣٥) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر**، ج٥، ص٣٩٠.

(٣٦) المطوي، **الحروب الصليبية**، المرجع السابق، ص٢٥٥.

(٣٧) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر**، ج٦، ص٤٢٥.

(٣٨) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر**، ج٦، ص ٤٢٥ ٤٢٦.

(٣٩) هو يحي بن عيسى بن ابراهيم أبي الحسن بن مطروح جمال الدين (ت: ٦٤٩هـ/١٢٥١م)، كان رجلا ذا شأن عند الملك الصالح أيوب، وكان من أعلام النثر والنظم. العيني، المصدر السابق، ج١، ص ٦٢.

(٤٠) ذكرت القصيدة في عدة مصادر مع الاختلاف في بعض الكلمات والأبيات. العيني، المصدر السابق، ج١، ص٣٠ عبد الرحمن بن خلدون، **العبر**، ج٦، ص٤٢٦ ابن الشماع، المصدر السابق، ص ٧١ ابن قنفذ، المصدر السابق، ص١١١. وللاطلاع على القصيدة يُنظر الملاحق.

(٤١) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر**، ج٦، ص٤٢٧٤٢٨.

(٤٢) المطوي، المرجع السابق، ص٢٠٨.

(٤٣) المقريزي، السلوك، ج١، ص ٦٠١.

(٤٤) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر**، ج٦، ص٤٢٨.

(٤٥) الزركشي، المصدر السابق، ص ٦٢.

(٤٦) بعد وفاة أبي عصيدة الحفصي سنة (٧٠٩هـ/١٣٠٩م) حكم بعده أبو بكر عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي زكرياء بن عبد الواحد لمدة ١٨ شهرًا، ثم وصل خالد بن المنتخب حاكم بجاية ودخل تونس وقتل أبا بكر في السنة نفسها مما حفز اللحياني على القيام بحركته. ابن الشماع، المصدر السابق، ص ٨٣٨٧ العيني، **عقد الجمان**، ج١، ص ١٠٥.

(٤٧) ابن الشماع، المصدر السابق، ص ٨٥.

(٤٨) عبد الرحمن بن خلدون، العبر ج٦، ص ٤٨٣.

(٤٩)المصدر نفسه، ج٦، ص٤٨٤.

(٥٠) العيني، المصدر السابق، ج١، ص١٠٧.

(٥١) ابن خلدون، **العبر**، ج٦، ص ٤٨٤.